التاريخ : سير أبطاله

ميرابو

ميرابو ... تلك الأعجوبة !
جوته

للأستاذ محمود الخفيف

تهيأ بواعث الحركات الشعبية وتتلاقى تياراتها على كر السنين ، وما تزال في نموها واطرادها حتى ينفجر سكونها بغتة عن عاصفة ، ثم لا تلبث تلك العاصفة أن تتمثل في مظهرين : فكرة ورجل ! على هذا النحو هبت العاصفة في فرنسا عام ١٧٨٩ ، فأما عقيدتها فكانت ما أعلنته الثورة من مبادئ ، وأما رجلها فكان ميرابو

أجل ، كان ميرابو رجل الثورة في أولى مراحلها ، ذلك لأنه حين ألقى بنفسه في بركانها لم تلبث أن وجدت في ترجمانها ، وفي شخصه عنوانها ؛ فلقد نبض قلبه بمشاعرها وامتلأ رأسه بآمالها ، وانطلق لسانه بأناشيدها ، وكان لها عون في حدة ذهنه ، ويقظة وجدانه ، وقوة جنانه ، وبيانه ، فألقت إليه مقاليدها برهة ، فلما التوت عليه واتخذ طريقاً يفضي إلى هاويتها وجدت فيه الرجل الوحيد الذي بغاية جهده ليحجزها عن وجهها ، ثم لما قضى نحبه ، ما تأكله فأكلت نفسها .

من أجل ذلك لا تستطيع أن تفهم الثورة حق الفهم أن تفهم ميرابو ، وكذلك لن تستطيع أن تعرف ميرابو أ المعرفة إلا في غمار الثورة ، فما كان قبل الثورة إلا رجلا حوله من الرجال ، بل لقد كان من عدة وجوه دون الكا منهم ، فلما أفاقت على صيحتها نفسه ، أصبح الرجل الذي قرينه في الرجال !

ولكن ما جره عليه نكد طالعه قبل الثورة كان ق عميق في سيرته يوم جن جنونها ، حتى لقد كان الناس على إكبارهم مواهبه في لبس من أمره دائماً ، يفسرون أ واتجاهاته بما كان من ماضيه ، فصار وهو الكوكب الساط سياسة وطنه يعاني مما انعقد حوله من الشبهات اضعاف ما يـ من غباء معاصريه وتزقهم .

عودته غلظة أبيه وسوء معاملته اياه الحنق عليه والكر له ، وأنت سياسته على العكس مما كان ينتظر ، وكان الأشراف الذين يحلو لهم العناد ، فلم يدع وسيلة يرى فيها أ شوكته إلا جربها ، حتى السجن أرسله اليه مراراً بواسطة الخطابات الملكية المختومة التي كان لها حكم القانون .

ولكن السجن لم يردعه ولم يصرفه عن الاسراف والاستـ ولما هم أبوه أن يرسله اليه مرة أخرى فر هارباً مع خليلة قد هام بها على الرغم من احتجاج زوجته ، وعلى الرغم من حد بعلها عليه واكرام مثواه حين كان يزوره في منزله .

وهنالك في هولندا حيثما أنفق ما حملته معها خليلته من الـ لم يجد له مرتزقاً سوى الكتابة ، فوضع رسالة في الحـ الاستبدادي ذاع بها اسمه بين الناس ، وأتبعها غيرها في الاقتصـ وكانت له فيها آراء صائبة ، غير أن حياة التشريد قد ألقت في كثير من مواطن الزلل ، فكان يستدين مرة ويستجد فلما هم بالشراء منه خر الشاري صعقاً لأنه لم يجد في سلته إلا « رؤوس رجال » ، لكن الاصلاح والتقدم المادي كان يشفع لهؤلاء الجبابرة ، بل ولمثل « بلانكو » طاغية فنزويلا في سنة ١٨٧٥ الذي قال كلمته المشهورة وهو على سرير الموت يستدبر الدنيا ويستقبل الله

القسيس : يا بني سامح أعداءك

بلانكو : لا أستطيع يا أبت

القسيس : كيف يا بني ؟

بلانكو : ليس لي أعداء . . . لقد قتلتهم جميعاً !

(البقية في العدد القادم) عبد الحليم الجندي

ن ذوى الثراء حيناً ، ويلجأ إلى ناشرى الكتب أحياناً كهم ويعركونه حتى ينقاضاهم بعض المال ثمناً بخساً لرسائله

وما كان ذلك الشقاء ليقهر نفساً لا تقهر ، بل لقد أوحى الانتقام من أبيه ، فلما علم وهو فى غربته بما شجر بينه وبين من نزاع ومقاضاة ، كتب رسالة صغيرة يحمل فيها عليه يه بالغباء والجهل فى أسلوب لاذع ، وأرسل منها عددا إلى ، ولكنها وقعت فى يد أبيه ، فبلغ الحنق من نفسه كل مبلغ تعمل نفوذه ، فاذا بابنه وخليلته يرسلان إلى فرنسا ، حيث ا فى السجن كل جزاء فعلته .

وكان السجن فى هذه المرة قاسياً إذ حرم عليه أول الأمر كل خفف عنه آلام وحدته ، ولكنه استطاع أن يسحر حراسه ة شخصه فأتوا له بما طلب من الكتب والورق والصحف ، كان فيها بعض السلوى لنفسه الوثابة

ولقد لبث فى الحبس بضع سنين ، أعاده بعدها أبوه إلى ياة الطليقة ، وهو يظن أن السجن قد نال من كبريائه ، ولم يدر الأمر قد زاد عوده صلابة ، وعلمه كيف يروض نفسه على أس ، وكيف يستهين بالألم إذا فكر أحد فى ارغامه ، ولذلك إلى التبذير والسفه ، ولج فى عناد أبيه وسوء معاملة زوجه ، أخذ ينشر من الآراء فى المال والسياسة ما أغضب عليه كبار مال الدولة ، فهم أبوه أن يلجأ من جديد إلى خطاب مختوم كنه هرب وطوف فى انجلترا وبروسيا وسواها من ممالك ارة وهو لا يكاد يجد ما يتبلغ به .

أكب فى أسره على المطالعة ، فالتهم ما حمل اليه من الكتب تهاماً ، وكانت له مقدرة خارقة على استيعاب ما يقرأ ، ثم هيأت أسفاره أسباب الخبرة الصحيحة ، فصاحب أخلاطاً من ناس ، ورافق أنماطا من الساسة ، وشاهد ألواناً من المجتمعات ، مارس ضروباً شتى من الأخلاق والعادات

على أن أصالته كانت أعظم من كسبه ، كما كان وحى عبقريته كبر خطراً وأبعد أثراً فى تكييف سلوكه من كل مازودته به لكتب من آراء ، ولكن تلك العبقرية كانت فى حاجة إلى ما يستثيرها ، كانت فيما يحيط به من ظروف العيش ، وما يكتنفه من الحوادث كالجمرة طفى عليها الرماد ، فما أن تهب العاصفة حتى تظهر وتتوقد وتبهر جذوتها القلوب والأبصار ، وما كانت العاصفة إلا الثورة وهى من وطنه على الأبواب .

بيد أنك تراه الآن ولما تواته الثورة يعيش من نفسه فى ثورة ! فلقد كان بطبعه عسوفاً عنوفاً لا تعرف نفسه الهدوء كما لا يعرف جسمه الدعة ، يميل بكل ما فى طاقته إلى النضال والتحدى ، فيحمى على المجادلة ، ويستعر على الجلاد ، ولا يستقر إلا على الظفر والتفوق .

وكان قلبه الكبير مليئا بالأحاسيس ، جياشا بالعواطف ، وكثيراً ما كانت حدة عاطفته مبعث مواقفه الفذة ومثار شجاعته حين كانت تستحكم الأزمات فلن يخرج الوطن منها إلا بشجاعته . وكان ذا مقدرة غريبة فى إثارة العاطفة فى قلوب من حوله حتى لكأنهم منه حيال ساحر عجيب ، وهو فى فورته يتناول كل شىء ولا يكاد يتجه إلى فكرة حتى يثب إلى غيرها ، ولا يكاد يسنح له خاطر حتى تتوارد على رأسه الخواطر ، وما كان ليضيق بها ، بل لقد كانت على وفرتها أقل من أن تقنع روحه أو تشبع عاطفته . قال أبوه يصف توثب روحه : « إن روحه كالمرآة المتحركة ينعكس فيها كل شىء ولا يستقر فيها شىء »

ولقد كان من أظهر خلاله وأعظم قوى نفسه ، شدة تأثيره فيمن حوله ، يحس من يقترب منه هيبة خفية لا يتبين مبعثها ، وينجذب إليه من يستمع له انجذابا يبعث على العجب ! ولقد بلغ من شدة تأثيره أنه كان يحمل رجال السجن على احترامه بل على محبته ، وتلك عجيبة من عجائب النفس لا تزال سراً مستغلقا على الأفهام .

على أن أبرز صفاته جميعاً وأوثقها علاقة بمستقبل حياته ، هى قوته الخطابية ، فلقد كان ميرابو خطيباً عبقرياً بكل ما تتسع له تلك الكلمة من معنى . وهو عند الكثيرين من المؤرخين أقدر خطيب شعبى فى التاريخ الحديث ، وأشد الخطباء تسلطا على أفكار سامعيه وأسرعهم توجيهاً لمن حوله إلى ما يريد .

كان فى أسلوبه رجل فن كأعظم ما يكون رجل الفن ، عرف أو على الأصح ألهم اختيار الكلمة القوية وصوغ العبارة التى تجمع إلى إشراق المعنى بعد المرمى وعمق المغزى . وكانت تواتيه عبقريته إذا تسنم المنبر فتسمو به عن مستوى الرجال ، فتراهم شاخصة أبصارهم إليه خافقة قلوبهم بما ينطق ، فاذا احتدم الجدل أو اشتد الموقف خطراً نظرت فاذا به أعظم مما كان حماسة وأسرع تدفقاً وأكثر إقناعاً ورأيت عبارته ترتفع وتعظم حتى تلائم الموقف ، وسمعت فى نبرات صوته أزيز نفسه وغليان دمه .

كان بولانه كنابليون فى غزواته ! تزداد عبقريته ملابسة له ، ويعدها أثراً فى نفوس سامعيه فى مواقف الحماسة الفائرة كأن كلماته الحيتان الضخمة لن تظاهرها إلا العاصفة !

وكان له فضلا عن ذلك من هيبة منظره وقوة صوته ورنين جرسه وشتى إشاراته كل معدات الخطيب . كان كبير الجرم ، قوى الجسم ، عريض المنكبين ، عظيم الصدر ، ترى فى وجهه الجاد العابس آثار جراح اندملت كأنك تلمح فيها صرامة الحوادث وصروف الزمن ، وكانت ترتسم ملامح وجهه بانفعالات نفسه ، كما كانت تلتمع عيناه وتختلجان فتبعثان الرهبة أو تثيران الشفقة . أما عن قوة أعصابه وضبط نفسه وصدق فراسته وتفهم الغاية التى يرمى إليها وتخير أقرب الطرق وأسهلها إلى تلك الغاية فكان فى ذلك كله مضرب المثل بين معاصريه .

والآن فلندع مقدرته على الخطابة حتى نشاهد آثارها فى مجلس طبقات الأمة وفى الجمعية الأهلية ، ويجمل بنا أن نتبين قبل انعقادها بعض آرائه السياسية .

لم تك أصالة ذلك الرجل الفذ فى السياسة أقل من أصالته فى الخطابة ، فلقد جمع إلى حماسة القلب حدة العقل ، وإلى ثورة العاطفة اتزان المنطق ، وإلى جموح الخيال وضوح المنهج ، وإلى وحى العبقرية شمول النظر ، وصدق التجربة واتساع الخبرة ، وإن المرء ليدهش حقا إذ يرى ذلك كله فى رجل . ولقد صدق جوته حين وصفه فى قوله : ميرابو/.. تلك الأعجوبة ! ! !

كان لهذا الزعيم غرض يرمى اليه ونهج يسير عليه . نشط قبيل الثورة فى نشر مبادئه ، عند ما عاد من برلين المرة الأخيرة ، وكان قد أوفد اليها من قبل الوزير كالون فى مهمة سياسية عام ١٧٨٧ أى قبل هبوب العاصفة بعامين ، ويخيل إلى أن الوزير إنما أراد إبعاده ، فلما استقل ميرابو ما كان يصله من أجر عاد إلى وطنه مغيظاً محنقاً فشهر قلمه للطعن فى كالون ونكر صديق الشعب ، وابتدأ الناس يحسون خطره كناقد سياسى ، ثم أحس الناس روحاً جديدة فى كتاباته واستشعروا أن صاحبها يمتاز ممن عرفوا من الرجال . اقرأ مثل قوله فى نقد نكر « ليعلم الذين يحسبون أنهم لا يستطيعون أن يحبوا الله خالقهم أو أن يحبوا الملك والوطن إلا أن يعبدوا نكر ، أنهم فى ضلالتهم يعمهون . هل فكروا فى أن تفاخره بأنه يستطيع أن يعقد أى قرض دون زيادة فى الضرائب موضع عار لا موضع فخر ؟ هل فكروا فى أنه بذلك قد استطاع أن يستهوى أولى الأمر فى الدولة ، فيدفع بهم إلى حرب تبرأ منها الانسانية [1] عما يتبعها من خراب مالى ؟ وهل يفهمهم ما يعلمون من خلقه وطيب نفسه عن نجاح سياسته كوزير ؟ » إقرأ هذا تر أن الثورة قبل هبوبها قد اهتدت إلى زعيمها ، وتلق فى مستهل مرحلة جديدة فى حياته العجيبة ، مرحلة الجد والوقار العاقل والجهد المتواصل .

راح يعلن للناس أنه عدو الامتيازات والاستبداد لن يقعد عن الجد حتى يرى الناس سواء أمام القانون ، الحرية حقاً يتمتع به كل فرد ، ويرى التعليم نوراً ينفذ إلى الطبقات ، والرخاء المادى حصناً يقى الوطن غائلة الفاقة كان للناس مطمع وراء هذا ؟ وهل كانوا يتغنون بغير هذه الأناشيد ؟ ولكن ميرابو لن يقبل أن يسعد الشعب على حساب الملكية ! وإذاً فهو يسعى من جانب آخر إلى أن يكون للملك نفوذها وسيادتها على أن تستمد ذلك من الشعب صاحب السلطان ولئن كان عمق من أعماق قلبه الفوارق بين الطبقات العهد الأقطاعى ، فان بدنه ليقشعر فرقا من الفوضى وإنه الطامة الكبرى فى جموح الشعب وتعديه حدوده .

بهذه المبادىء وبما عرف عنه من مقدرة خطابية قدم ميرابو للانتخاب فى مدينة إكس ليكون نائباً عن فى مجلس طبقات الأمة ، بعد أن نأى الأشراف بجانبهم عنه وعلى الرغم من كيد خصومه له خرج من المعركة داوى الصيت

(يتبع)

الخفيف

(١) مشيرا إلى الحرب فى أمريكا وكانت فرنسا على رغم عسرها قد أرسلت حملة لمساعدة أهلها

لا تفتك قراءة . . . .

القصة العالمية

نابليون : المائة يوم

تأليف السنيور موسولينى (الدوتشى) والسنيور فورزا

نقلها الى العربية الناقد المسرحى

يوسف تادرس

تطلب من المكاتب الشهيرة والثمن عشرة قروش